المقتطف

الجزء الاول من المجلد الرابع والثلاثين

١ يناير (كانون الثاني) سنة ١٩٠٩ — الموافق ٨ ذي الحجة سنة ١٣٢٦

الدكتور يوحنا ورتبات

مات بشيبة صالحة شيخاً وشبعان ايام بعد ان خدم جيله

يندر ان يصدق هذا القول على احد كما يصدق على استاذنا الدكتور ورتبات صاحب الترجمة فقد جاز الثمانين وقضى عمره كله بالتعلم والتعليم والبحث والتنقيب والارشاد والتطبيب. كان طبيباً نطاسياً وطبيباً للنفوس والعقول وخلّف كتباً كثيرة ومقالات شتى في الطب وفروعه وحفظ الصحة والحث على الآداب والفضائل وله ايضاً كثير من الكتب الدينية بين موضوع ومترجم. حياة كلها عمل ونفع وسيرة تتضوّع كالمسك عبيراً

ورأيناه اول مرة منذ اثنتين واربعين سنة في مدرسة عبيه بلبنان جاءها زائراً وكان الشيب قد وخطه ووقف في منبر الوعظ فوعظ بالعربية بلغة فصيحة وكنا نظنه انكليزياً من لبسه ومخاطبته المرسلين الاميركيين بالانكليزية فقط. ثم وعظ بالانكليزية في ذلك اليوم عينه وسمعنا اساتذتنا يعجبون ببلاغته في اللغة الانكليزية كما يعجبون ببلاغته في العربية وحسن اسلوبه في الوعظ والانذار ويقولون انه من نوابغ رجال المشرق الذين تلقوا العلوم على المرسلين الاميركيين. ولم يخطر لنا حينئذٍ اننا سنكون من تلامذته واخص اصدقائه وناشري لواء فضله

وبعد سنة انشئت المدرسة الكلية الاميركية في بيروت واخترنا في السنة التالية لتدريس التشريح والفسيولوجيا فيها فصرنا من تلامذته ودرسنا عليه مبادئ علم الفسيولوجيا وكان شارعاً في تأليف كتابه المشهور فيه فجعل يلقيه علينا خطباً ويملينا كراريسه لننسخها ورأينا

منهُ حينئذٍ عالماً عاملاً يقرن العلم بالعمل والقول بالامتحان يرينا خلايا الدم وتلافيف الدماغ وسمات القلب وفصوص الكبد وحبيبات الطحال واقسام الامعاء ويغرينا بتشريح الحيوانات ودرس وظائف اعضائها ولا يكتفي بالقاء الدرس وشرحهِ وايضاحهِ بالرسوم والرموز والمستحضرات التشريحيَّة والفسيولوجيَّة بل يسائلنا كل يوم عمَّا درسناهُ في سابقهِ حتى ترسخ المعارف في الذهن بالمواجهة والتكرار وهذا من المزايا التي تمتاز بها المدرسة الكلية الاميركية على كثير من الجامعات العليَّة لان التلميذ قد لا يفهم ما يقولهُ الاستاذ ولاسيما اذا كان مبتدئاً او يفهمهُ خطأً ويجري على الخطإ فالامتحان اليومي يردهُ الى الصواب ويغريهِ بالدرس حتى يصير مغرماً بالعلم مدركاً لاصولهِ فيسهل عليهِ فهم ما يلقيهِ الاستاذ من الشروح واستيعابها . ولم يكن يرهق التلامذة فهم ما يعسر عليهم فهمهُ او لا فائدة لهم منهُ . ومضت السنون بعد ذلك وهو مثال لنا في الهمة والاجتهاد والدعة وكرم الاخلاق . مرشد حكيم نتَّبع قدوتهُ وصديق مخلص نفيد مودتهُ وهذا رأي تلامذتهِ كلهم الذين تعلَّموا منهُ كما هو رأي معارفهِ الذين عاشروهُ وعاملوهُ

وقد عملنا منذ ثلاث سنوات انهُ صار على حدود الثمانين فعزمنا مع بعض تلامذتهِ ومريديهِ ان نهدي اليهِ هدية تليق بشأنهِ اعراباً عن شكرنا لهُ وتذكاراً لفضلهِ على ابناء العربيَّة فكتبنا اليهِ نسألهُ عن بعض الامور في تاريخ حياتهِ ونطلب منهُ ان يختار لنا صورةً من صورهِ لننشرها مع ترجمتهِ (وكنا عازمين ان نجعل الترجمة تمهيداً للهدية او للتذكار) فابى علينا ذلك اولاً ثم اجابنا الى طلبنا بعد الحاحٍ شديدة ولكنهُ لم يجبنا الاَّ بعد ان وعدناهُ اننا نوجز المقال جدًّا ونجعل ترجمتهُ عليَّة محضة خالية من الاطراء . ثم علم غرضنا من نشر الترجمة وهو التمهيد الى تقديم الهدية او اقامة التذكار فكتب الينا ينهانا عن ذلك ويظهر كراهتهُ لهُ ولم يكف حتى كتبنا اليهِ اننا ائتمرنا بامرهِ وعدلنا عمَّا قصدناهُ . اما الترجمة التي نشرناها حينئذٍ مخلاصتها في ما يلي

هو ارمني الاصل كما تدلُّ كنيتهُ وملامحهُ وُلد في بداءة سنة ١٨٢٧ . وشرع وهو في الخامسة يتعلَّم مبادئ القراءة . ولما انشئت المدرسة الاميركية الاولى في بيروت سنة ١٨٣٦ انتظم في عداد تلامذتها وبقي فيها ست سنوات وكان التعليم فيها باللغة الانكليزية فالقن هذه اللغة حتى لا يفرق عن فصحاء اهلها لفظاً وانشاء . وبعد خروجهِ منها قرأ النحو والبيان على الشيخ ناصيف اليازجي من علماء الشام والعروض والمنطق على الشيخ عقل الزويتيني من علماء حلب ولازم افاضل المرسلين الاميركيين ثماني سنوات وقرأ عليهم العبرانيَّة واللاتينيَّة

والبوفانية والحوم اللاهوتية وعلى ثلاثة من اطبائهم اكثر فروع الطب ثم اكمل دروسهُ الطبية في ادنبرج ونيويورك ونال الشهادة الطبية بعد الامتحان

ولما فُتح الفرع الطبي من المدرسة الكلية في بيروت سنة ١٨٦٧ جُعل اليهِ استاذًا للتشريح والفسيولوجيا على ما تقدم فدرَّس هذين العلمين ست عشرة سنة متوالية والَّف فيهما كتابين جليلين بالعربيَّة لا يزالان اوسع ما وضع في هذين العلمين بها حتى الآن . ثم انتُدب لتدريس الطب الباطني بعد استعفاء الدكتور ڤان ديك فدرَّسهُ اربع سنوات . وكان طبيبًا للمستشفى البروسباني في بيروت المعروف بمستشفى فرسان مار يوحنا فاهدى اليهِ اصحابهُ وسام الاستحقاق الذهبي وساعة ثمينة نقشوا عليها اسمهُ وذكروا خدمتهُ في ذلك المستشفى خمس عشرة سنة . ومنحهُ الدولة العثمانية الوسام المجيدي الرابع اعترافًا بخدمتهِ مدة الكوليرا سنة ١٨٧٥ والعثماني الرابع جزاء ما الَّفهُ ونشرهُ من الكتب العلمية فقابل الوسامين بالشكر لانهُ نظر الى الدلالة المقصودة منهما

ويمتاز في تأليفهِ وتدريسهِ وتطبيبهِ ومعاشرتهِ ولهُ في كل امر من ذلك خطَّة معلومة ترى بالاول نظر

ففي التأليف يتوخى الفائدة والسهولة كما يبين من الكتب التي الَّفها او ترجمها ومن المقالات التي كتبها بالعربيَّة او بالانكليزية

ولهُ من الكتب العلمية كتاب التشريح . وكتاب الفسيولوجيا . وكتاب صغير في التشريح والفسيولوجيا مع اطلس كبير . وكتاب في حفظ الصحة . وكثير من المئتين مقالة اكثرها باللغة الانكليزيَّة بعضها في المواضيع الطبية كالجذام والطاعون والكوليرا والحمى الشيقوبدية والتريخينا ونحوها . وبعضها في مواضيع ادبيَّة كوصايا الشيوخ للشبان والتربية المدرسية والمصريين القدماء ونحو ذلك من المقالات التي تراها منشورة في المقتطف . وترجم كثيرًا من الكتب الدينية والتفاسير ورأينا لهُ كتابًا كبيرًا بالانكليزية موضوعهُ تاريخ الكنائس الشرقية فلما رأينا احدًا اشار اليهِ وسيأتي الكلام على كتابهِ الاخير في حكمة العرب بالانكليزية . واسلوبهُ في الكتابة خالٍ من التعقيد ومقصور على ايراد المعنى المراد من غير التفات الى تنميق الالفاظ والتراكيب . وقد عرف الاوربيون والاميركيون قدرهُ العلمي لما رأوهُ من تآليفهِ فانتخب عضوًا في المجمع الطبي الجراحي في ادنبرج ومجمع لندن في علم الامراض الوافدة والاكاديمية الطبية في نيويورك . ومنحهُ مدرسة ييل الجامعة الدكتورية الاكرامية

واسلوبهُ في التدريس مثل اسلوبهِ في التأليف فلا يترك امرًا جوهريًّا الاَّ بعد ان يفهمهُ

تلامذتهُ حق الفهم نظرًا وعملاً . والتشريح من اصعب العلوم في تدريسهِ وكثرة ما يجب حفظهُ منهُ ومع ذلك كان تلامذتهُ لا يتركون شيئًا منهُ جوهريًا الاَّ ويستظهرونهُ ابتداءً بهِ . والفسيولوجيا من العلوم الدقيقة الثانية لكان يصل في تدريسها الى آخر حدٍّ وصلت اليهِ حينئذٍ في ايدي علماء اوربا ويرسّخ قواعد العلمين في ذهن التلميذ بالتشريح العملي والبحث الفسيولوجي . وهو مثال في المواظبة والمحافظة على الوقت فلا يضيع دقيقة من اوقات التدريس بل يضيف اليها كل ما يلزم لقرن العلم بالعمل وجعلهِ بحيث يرى التلميذ فيهِ لذةً ولو لم يكن مما يُرغب فيهِ عادةً كعلم التشريح

ومن غريب امرهِ انهُ كان يتذكر كل الاسماء التشريحية على كثرتها فلا يشار الى عظم من عظام الجسم ولا الى عضل منهُ ولا الى شريان او وريد او وتر الاَّ ويذكر اسمهُ واسم كل ما يتعلق بهِ ومع ذلك ينسى اسماء تلامذتهِ فلم تكن لهُ اقل عناية بحفظ الاعلام لقلة اعتنائهِ بالاعراض

ومدار اسلوبهِ في التطبيب الاعتماد على الوقاية والتدابير الصحية ومساعدة الطبيعة للتغلب على المرض والاقلال من العلاجات الدوائية على قدر الامكان وبث الثقة في نفس المريض بتخفيف الامر عليهِ . وهذا الاسلوب قد لا يفيد الطبيب مالاً ولكن المال ليس الغرض الذي كان يرمي اليهِ وهو من ازهد الناس في الدنيا

روى لنا ثقة منذ نحو خمس وعشرين سنة حادثة يصحُّ نشرها في هذا المقام . قال "مرضت زوجتي فاستدعيتهُ لها فجعل يعالجها ويعودها كل يوم وانا ادفع اليهِ اجرة العيادة حسب العادة . وذات يوم اثبتُّ لهُ اني افضّل ان لا يعودها كل يوم فلحظ اني استثقلت دفع اجرة العيادة فوقف وسألني عن عملي وراتبي فاخبرتهُ فمضى ثم عاد ومعهُ كل الدراهم التي اخذها مني فردها اليَّ واضطرني الى اخذها وواظب على عيادة زوجتي من غير اجرة" . هذا ما وعتهُ الذاكرة من هذه القصة وقد تكون تخطئ في بعض تفاصيلها لبعد المدة ولكن مجملها كذلك . ولا يبعد ان يكون لها امثال كثيرة . وليس الغرض من ذكرها التنويه بفضلهِ واحسانهِ بل الاشارة الى انهُ كان يعدُّ الكسب من صناعة الطب امرًا ثانويًا

الى هنا كان النظر اليهِ من حيث كونهُ رجل علم منقطعًا لافادة ابناء نوعهِ والآن ننظر اليهِ من حيث مقامهُ بين معاشريهِ

اذا نظر اليهِ المرء ولو مرةً واحدةً لا ينسى ما يراهُ في وجههِ من امارات الهيبة والوقار وقد يظنهُ لاول وهلة عبوسًا غير انيس المحضر ولكنهُ اذا عاشرهُ ولو قليلاً رآهُ على جلالة قدرهِ من اكثر الناس بشاشة وانكههم حديثًا . ويغلب الوقار عليهِ في مقام التعليم والارشاد كما اذا

وقف واعظاً او خطيباً . والمواضيع التي بني كلامهُ عليها جميلة مدارها في الغالب الحث على الفضائل واقامة الادلة العلية والتاريخية على فائدتها فكم من مرة اتخذ موضوعاً لعظاتهِ قول الكتاب ان التقوى لها موعد الحياة الحاضرة والعتيدة وما يماثل ذلك من الآيات الكتابية . وخطبتهُ المضمونة وصايا الشيخ للشبان اوضح مثال لذلك وهي منشورة في المجلد التاسع عشر من المقتطف . ولكن الحياة ليست كلها تعليماً وتدريباً بل جانب كبير منها معاشرة ومعاملة فاذا رأيتهُ في حديقة بيتهِ يعتني بازهارها وبرياحينها او رأيتهُ يلعب الالعاب الرياضية فيهامع الشبان والصبايا او رأيتهُ مع عشرائهِ يطربهم بفكاهة حديثهِ ويقص عليهم النوادر الغريبة او رأيتهُ يضحك لنكتة كما رأيناهُ مرة اغرب في الضحك لكلمة قالها احد التلامذة فجاءت تورية مضحكة — من رآهُ كذلك قال ان الوقار والبشاشة اجتمعا فيهِ احسن اجتماع من غير افراط ولا تفريط

هذا جلُّ ما نشرناهُ من ترجمتهِ سنة ١٩٠٥ ونعود الى المقتطف في السنة الماضية (سنة ١٩٠٧) بثلاث مقالات الاول حكم من اقوال الشيخ مصلح الدين سعدي الشيرازي مهَّد لذا تمهيداً حسناً ذكر فيهِ خلاصة ترجمتهِ ثم ترجم امثالهُ وعارضها بما يقابلها من الامثال العربيَّة نثراً ونظماً وهي في كثير من المواضيع الادبيَّة كالكرم والبخل والاحسان والتواضع والكبرياء والعلم والظلم والقناعة والامانة

والثانية وصايا فتاح هرتب لابنهِ وكان فتاح هرتب وزيراً لملك ايسوسي من الدولة الخامسة المصرية وكتابتهُ اقدم ما وصل الينا من كتب المصريين القدماء يعتدُّ تاريخهُ الى اكثر من ثلاثة آلاف وخمس مئة سنة قبل المسيح وهي من افضل الوصايا التي اطلعنا عليها في العربيَّة وغير العربيَّة

والثالثة حكم وامثال من التلمود واكثرها من جوامع الكلم مثل تعلَّم ثم علِّم . الآس آس ولو في قفر . مناظرة العلماء تزيد العلم

وقد اختار هذه الحكم الفارسية والمصرية والعبرانية من كتب حكم المشرق التي طبعت حديثاً في البلاد الانكليزية والَّف لطابعيها كتاباً جمع فيهِ كثيراً من الحكم والامثال العربيَّة فراجت سوقهُ ونفدت نسخهُ حتى طلب طابعوهُ منهُ ان يردفهُ بكتاب آخر اوسع منهُ . وكتب الينا قبيل وفاتهِ يقول انهُ انجز ذلك الكتاب ولا ندري هل طبع او لم يطبع حتى الآن

ولما اطلع على ما كتبناهُ عن اسايا بلاد بنو والشفاء الغريب في المجلد الثاني والثلاثين من المقتطف بعث الينا برسالة يفسرها تلك الغرابة ويذكر بعض الحوادث التي وقعت لهُ من هذا القبيل فنشرناها في الجزء الاول من المجلد الثالث والثلاثين اي بعد اثني عشر شهراً

واعتراهُ مرض في حنجرتهِ منعهُ من الكلام وكاد يمنعهُ من التنفس حتى اضطرَّ الجراحون ان يشقوها لهُ فصبر على هذه البلوى صبر الكرام وكتب الينا بعد ذلك مرارًا وهو يقول ان الداء منعهُ الكلام ولكنهُ لم يمنعهُ الكتابة ويود النجاة من تلك الآلام والخلاص من قيد هذا السجن الارضي وظلَّ كذلك الى ان طفئ سراج حياتهِ في الحادي والعشرين من شهر تموز الماضي وقد كتب الينا احد الادباء من بيروت يقول

" كانت الساعة الرابعة ونصف من بعد ظهر امس السبت عند ما انطفأ ذلك السراج المنير ووقفت حركة ذلك القلب الخافق في صدر ذلك العلامة الكبير واسقد ذلك اللسان الناطق بالحكمة وصعد ذلك النفس الاخير وفاضت تلك الروح الطاهرة بين ذويهِ وتلامذتهِ . بين محبيهِ واصدقائهِ . بين سكون الطبيعة وبساطة المعيشة . بين عمل الخير وصحبة البائس . بين المسيحي والمسلم واليهودي بين السوريين والاجانب . فقضى الاستاذ الدكتور يوحنا ورتبات شيخ الاطباء ومات كبير الحكماء . صديق سوريا والسوريين الصادق وفانديك الثاني الحبيب

قضى فاجتمع بعض الافاضل من اصدقائهِ ومنهم اسبرانتدي شقير ومراد بك البارودي والسادات غندور اخوان وخليل افندي سركيس وجرجس افندي صيقلي وغيرهم وارسلوا خبر وفاتهِ الى ارباب المقامات العالية واطباء البلدة وحكامها وافاضلها ورؤساء مدارسها . فاخذوا يتواردون الى بيتهِ معزين ابتدأ الآنسة ادلا نادبين الاستاذ الكبير والشيخ الحكيم معددين صفاتهِ ومناقبهُ متأسفين على صديق صادق وحبيب مكرَّم

فما كانت الساعة الثانية ونصف بعد ظهر الاحد وهو الوقت المعين لنقل الجثة حتى احتشد جمع غفير من نخبة القوم وسراتهِ فساروا بالنعش موضوعًا في عربة بسيطة الى الكنيسة الانجيلية ووضعوا النعش على منصة وهو مغطى بالاكاليل الطبيعية والاصطناعية . وكانت الكنيسة ملأى بالناس من فاضل وموظفين واطباء وعلماء ووجهاء وادباء . مسلمين واسرائيليين ودروز ومسيحيين وطنيين واجانب

فصلى عليهِ حضرة الفاضلين القس اسعد عبدالله والدكتور مكي وقد اوصى الفقيد ان لا يتولَّى الصلاة عليهِ غيرهما . ثم حمل النعش ثانية واشترك في حمله سوريون واجانب مسلمون ومسيحيون الى المقبرة الاميركانية حيث دفن بالاكرام والاجلال ولولا وصيتهُ بان لا لا تقل على قبور التائبين والمراثي لكنا سمعنا الكثيرين من خطباء بيروت وادبائها الذين كانوا مستعدين لقيام بهذا الواجب المقدس

هكذا دفن العالم العامل والحكيم الكبير فكان بسيطًا في حياتهِ وبسيطًا في مماتهِ . ولكن

من تلك البساطة ظهرت عظمته فاجمعت القلوب على احترامه وحبه واكرامه

هذا صديق السوريين واستاذ الكثيرين منهم رأينا في حفلة جائزته المسيحي والمسلم واليهودي والدرزي جسماً واحداً وعضواً واحداً في الاسف عليه والاشتراك في اكرامه واعظامه

وقد كتب الينا غيره بمثل ذلك والكل مجمعون على ان ابناء سورية ودّعوا برداعه أصدق صديق واخلص مرشد. وحبذا لو اهتم تلامذته وسريدوه باظهار الاكرام له الذي منهم من اظهاره في حياته وهو الاكتتاب بقدر من المال ينشأ به تذكار يليق بمقامه يوضع فوق لحده او في مكان آخر حيث يراه ابناؤنا فيتذكرون فضله

الصناعة العربية

لما كان العرب في جزيرتهم لم يكن لهم صناعة تذكر بين الصناعات القديمة المشهورة لا في البناء ولا في النقش. وكل ما رأيناه من رسوم آثارهم وتماثيلهم التي وجدت في مدائن اليمن وحضرموت لا يدل على تفوق في الصناعة يقابل بما وجد في بابل وفينيقية ومصر والهند والصين. ولما ظهر الاسلام وخرج العرب من جزيرتهم ودوّخوا الاقطار وورثوا ممالك الفرس والروم وقطعوا الى اوربا حوّلوا الكنائس الى مساجد واستخدموا الصنّاع من الفرس والروم في بناء المباني وزخرفتها ومرّت القرون وهم يستقدمونهم مأجورين كما فعل الوليد لما بنى الجامع الاموي في دمشق او يجلبونهم في جملة الغنائم كما فعل تيمورلنك بصنّاع دمشق لما فتحها

هذا ما ظل الزاة يفعلونه حتى القرن التاسع فما قولك بما كانوا يفعلونه في القرون الاولى. الاّ ان الصناع الذين استخدمهم ملوك العرب سواء كانوا من الروم او الفرس او من العرب انفسهم او من ابناء البلدان التي تسلطوا عليها لم يعتنوا برسم الصور ونقش التماثيل الاّ في الاندلس وكانوا يكتفون برسم الاوراق والازهار والاشكال الهندسية فنشأت من ذلك صناعة خاصة تعرف الآن بالصناعة العربية. وبهروا فيها مهارة فائقة وادخلوها في كل مصنوعاتهم من الحجر والخشب والعظم والعاج والصدف والحديد النحاس والفضة والذهب. وترى مصنوعاتهم في مساجدهم وقصورهم وبيوت كبرائهم تستوقف الابصار بحسن رواثها واحكام اجزائها وقد خلّفوا منها في اسبانيا ما لا يزال آية في الجمال

وشاعت هذه الصناعة في المساجد وفي الكنائس ايضاً فتجدها في كنائس القبط القديمة